M-16 DIA Informal

قيام
الدولة الفاطمية ببلاد المغرب

تأليف

عادل على الحمد

١٩٨٠

الناشر
دار ومطابع المستقبل
بالفجالة بالقاهرة وصفية زغلول بالاسكندرية

تقـــــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبيه وصفيه وآله أجمعين

وبعـد فان تاريخ المغرب الاسلامى طـويل حافل باخبار الدول والتجارب السياسية والحركات الاجتماعية والتطـورات البعيدة المـدى ، ولكن هـذه التجارب والحركات والتطورات كلها مفهومة ولا يعسر على المؤرخ المتدبر أن يجد المنطق التاريخى لكل منها ، وأما التجربة الفاطمية أو قيام الدولة الفاطمية وما تقضى من عمرها فى بلاد المغرب فهى معضلة لا تشبه غيرها فى شىء فنحن نعرف الكثير من التفاصيل عن قيام هذه الدولة فى منازل قبيلة كتامة وأحلافها بين افريقيا والمغرب الاوسط ونحن نعرف كذلك الكثير من تفاصيل تاريخ الفاطميين خـلال الستين عاما أو نحـوها التى عاشتها فى المغرب ، ولـكن هـذه التفاصـيل لا تشرح لنـا السبب فى نجاح رجـل واحـد هـو أبو عبد الله الشيعى فى اثارة هـذا الاعصار الفاطمى الشامل الذى زلزل كل شىء فى المغرب من أقصاه إلى أقصاه ، وامتدت أصداؤه الى الاندلس فكان له على سير الامور فيه أثر غير محمود .

حتى اسم ذلك الرجـل لا نعرفه على وجـه التحقيق ، فأبو عبـد الله كنيـة والشيعى وصـف مذهبى والصنعانى نسبة جغرافية ، وهذه الثلاثة كلها لا تعنى شيئا فهى أشبه بالرمز على اسم ذلك الرجل أو هى الستار الذى تخفى وراءه .

حقا أن القاضى النعمان بن محمد يلقى ضوءا باهرا على معضلة قيام هذه الدولة بكتابه القيم عن « ابتداء الدعوة » ولكن القاضى النعمان داعية سياسى مذهبى ، وكلامه لا يعطى الا وجها واحـدا من الصورة ، أما الوجه الاخر فيشترك فى تقديمه لنـا حشـد من المؤرخين ما بين مسلم بمـا يقال عن مؤسسى الدعوة الفاطمية فى المغرب وأصولهم مثل ابن عـذارى والنويرى وابن الاثير وكل من نقـل عن ابن الرقيـق أو مؤيد لمسألة النسب تقيـة ومحبـة فى آل البيت ، أو منكر لـه حامل على الفاطميين جملة مثل الداوادارى · وبين هـؤلاء جميعا تضيع الحقيقة أو يفلت الزمام من بين يدى المؤرخ البـاحث عن رأى ترضاه نفسه ويعينه على العثور على الخيط الهادى الذى يتفق مـع منطق التاريخ ·

وينتهى الامر بالمؤرخ آخر الامر الى أن ينظر الى هذه التجربة الفاطمية على أنها مغامرة من مغامرات التاريخ الكثيرة التى ثارت كالاعاصير فهـدمت وخربت ثم مضت مخلفـة وراءه حطـاما · فلا نزاع أن هـذا المسمى بأبى عبد الله الداعى كان مغامرا جريئا القى بنفسه فى لجة الايام ولا ندرى كيف استطاع أن يحافظ على توازنه وسط تدافع الموج المتعالى من حوله · ولا شك كذلك فى ان قبيلة كتامة التى اتبعته غامرت بنفسها ووطنها تطلب عزا وشرفا وجاها فلم تجن الا المتاعب ، وعبث بهـا هـذا الداعى عبثا غير كريم : استخدمها لاغراضه وكذب عليها وفرق جماعتها وضرب فروعها بعضها ببعض واوقـع بينها وبين القبـائل ، وخاض بها حروبا حصدت رجالها حصدا فلا هى انتفعت بالدعوة ولا هى بقيت على حالها · ثم جاء عبيد الله المهدى من سلمية فيما يقـال ، وسـلك الى المغرب طريقـا غريبـا ينتهى به فى خبر لا يصـدق الى بلاد تافللت فى أقصى جنوبى المغرب الاقصى ، وهنـاك لا ندرى لـماذا أودعـه صـاحب سجلماسة السجن ، فسجلماسة لم تكن من توابع العباسيين ولا كان أعـداء بنى

العباس أعـداء لاصحابها ، ولكن هـذا هـو الذى حـدث ، أو هـذا هـو الذى قيل لنـا أنه الذى حـدث ، ويهرع أبو عبد الله الشيعى ليخلص سيده السجين وابنه فنجد أنه لا يعرفه حتى لقـد أخطـأ فى شخصه ·

ومن سجلماسة عـاد الى القـيروان موكب الخليفة الجـديد الذى لم يكن أحـد يعرفه الى ذلك الحين وفى القيروان بدأ الرجل يحكم بلدا لا يعرفه ولا هـو لديه فكرة عن طبيعة أهله ، فكان أول ما فكر فيه أن ينشىء لنفسه ولاسرته حصنا يعتصم فيه من أهل بلده فابتنى حصن المهـدية وكان ثانى ما فكر فيه هـو التخلص من الرجل الوحيد الذى كان من الممكن أن يعينه فى ادارة هـذا القطر وهـو أبو عبد الله الشيعى · ونكب أبو عبد الله وأخـوه أبو العباس ومد الخليفة يده الى الصف الثانى من رجال الكتاميين وربط بهم حباله ، وبمعاونتهم قضى على الجيل الاول الذى حمل عبء الدولة ، وهكذا قضى مع ذلك القريب الذى لم يتقن من أساليب السياسة شيئا كما أتقن المكر والدس والوقيعة وجمع المـال والعنف البالغ · ومع ذلك فمن هـو ؟ ان بعض المراجـع تؤكد أنه ليس الامام العلوى المنتظر ، وانما هـذا الامام العلوى كان ابنه القائم الذى جـاء بعـده ، أما عبيـد الله فكان مجرد حاضن أو ممهد · هكذا يقولون ·

وأهل البلاد نافرون متخوفون من الدولة ، فهم سنة منشودة وهـذا شيعى ، وهم لا يعرفون عنه شيئا يعينهم على أن يكونوا لانفسهم فكرة واضحة عنه ، فهم فى حيرة وقلق وخـوف على النفس والدين ··· ثم تقـع الواقعة ويكون الانفصال التام بين الحاكم والمحكوم ، وعلى ذلك تسير الامور ·

ولكن كيف تسير ؟ هنـا نقـع مرة أخرى فى ذلك الضباب الذى يحيط بكل ما حـدث فى دولة الفاطميين فى دورها المغربى

ومراجعنا تزيدنا حيرة ، وفى أحيان كثيرة نشعر بأننا فى كهف من الكهوف السوداء التى يقول علماء الفلك أنها موجودة فى الفضاء ..

***

تلك هى أمثلة من المشاكل التى تصدت طالبتى السيدة عادلة على الحمد لحلها ، وهى كما رأيت مشاكل معقدة بل مستحيلة . فكان عليها ان تقرأ كثيرا جدا وتفكر كثيرا جدا ، ولا تضع كلمة على الورق الا بعد تفكير طويل ، وبعد أن تكتبه وتقرأه على أحس أن فيه خلقا وتحس هى الاخرى أنها غير مرتاحة لما كتبت ، فتعود الى القراءة من جديد لتكتب من جديد ولتشك فيما كتبت من جديد .

ان هذا النوع من الدراسات الجامعية يشبه التجارب التى يجربها العلماء فى المعامل . فقد يرهق الباحث نفسه ويقضى السنوات فى طلب شىء وفى النهاية لا يصل الى هذا الشىء ، وقد يصل الى شىء ينقضه هو نفسه أو غيره بعد قليل ، وذلك لا يثبط همته ولا يعوقه عن العمل لان العلم بحث وتجريب ، وعن سبيل البحث والتجريب ، وعن طريق الخطأ والتصويب نصل فى النهاية الى الصواب .

وهذا هو الذى فعلته السيدة عادلة على الحمد لتصل ببحثها الى الصورة التى ناقشناها فى جامعة الكويت وأجزناها، وهى التى يراها القارىء معدلة بحسب ما أوصت به لجنة المناقشة محسنة بعد اعادة النظر وترديد الفكر مرة بعد مرة .

أنها محاولة موفقة لحل مشكلة ضاعت كل مفاتيحها فى ليل التاريخ ، مشكلة قيام دولة ضخمة مثل الدولة الفاطمية

بجهد رجل وأحد موهوب أو داهية بتعبير أصح . أقامها على أكتاف رجال لم يكن واحد منهم يعرف شيئا عن المذهب الشيعى الذى يدعو اليه أبو عبد الله ولا عن حقيقة أحد من أهل البيت الذى يبشر به ذلك الداعى . انما هم كانوا ناسا على الفطرة فيهم حماس وعندهم ايمان ويعمر قلوبهم طموح فيه طفولة وفيه سذاجة وفيه رغبة فى انفاق نشاط متجمع كان لابد أن يجد له مخرجا ، وقد أوجد أبو عبد الله الشيعى لهم هذا المخرج فانتضوا السيوف ومضوا تحت رايته ليلقوا المجد والعز حينا ثم يلقاهم الموت وسوء المصير فى نهاية المطاف .

فى كلام ابن خلدون عن كتامة نقرأ أنه بعد أن ذهبت رياح الزمان بالدولة الفاطمية كان الرجل من بقاياها يتبرأ من أن قومه اشتركوا فى اقامة هذه الدعوة كأنها كانت خطأ معيبا وقعت فيه قبائل كتامة . وفيما نقله ابن عذارى من المأثورات الشعبية نجد أسطورة تصور عذاب عبيد الله المهدى عذابا رهيبا بعد موته . وفى حديث أحد المستشرقين عن الدولة الفاطمية يقول ان قيام الدولة الفاطمية كان ثمرة أضخم مؤامرة فى التاريخ .

أحكام وآراء ومادة تاريخية عسيرة على الترويض انفقت عادلة على الحمد سنوات طويلة وهى تبحث وتقرأ وتكتب ، وانتهت آخر الامر الى هذا العمل الذى يسعدنى ان أقدمه فى هذه السطور .

جهد مشكور وعمل مبرور قامت به شابة كويتية وهبت نفسها للعلم والبحث حبا فى العلم والبحث دون نظر الى كسب غير اشباع الشغف بالكشف عن المجهول وهذا هو الذى جعلنى أتابع العمل معها فى حب ومسرة ، فليس أجمل عند رجل

العلم من أن يقف الى جانب طالب علم يضرب بعصاه فى أول الطريق ويحاول أن يعبر عن شخصيته ويكشف أسلوب نفسه عن طريق بحث أو دراسة ٠

وقد وفقت السيدة عادلة على الحمد فيما طلبت فقدمت لنا هذه الدراسة الممتعة التى ستكون منذ اليوم علما فى طريق البحث عن الحقيقة الفاطمية ٠ وأنا أشعر اذ أقدمه بسعادة الشيخ وهو يقدم للناس بواكير جهد تلميذه ، وأنا واثق من أن جمهور أهل العلم سيجدون فى هذه الصفحات ضوءا يكشف جوانب المعضلة الفاطمية ويذلل الطريق أمام الراغب منهم فى مواصلة البحث والتنقيب ٠

ولله الحمد فى البداية والنهاية ومنه الرشد والهداية ٠

د٠ حسين مؤنس

بسم الله الرحمن الرحيم

رب عونك وتيسيرك

مقدمة

يعتبر قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب خط تقسيم واضح فى التاريخ السياسى والحضارى لدار الاسلام ، وانقلابا كبيرا فى تاريخ الاسلام ما زالت نتائجه باقية ومؤثرة الى اليوم فى كثير من أرجاء هذا العالم ٠ ذلك أن هذه الدولة جاءت وليدة صراع سياسى ومذهبى مرير ، اصطلحت به « حركة الشيعة » ـ دون ما كلل أو ملل ـ منذ ظهرت نواتها فى تلك الجماعة التى نادت عقب وفاة الرسول الكريم أن عليا بن أبى طالب وأبناءه من بعده أحق بخلافة رسول الله ، وبتولى السيادة العليا أيضا للدولة الاسلامية ، وأن الذين نالوا الخلافة من غير أفراد البيت العلوى يعتبرون مغتصبين لحق شرعى نص عليه الرسول نفسه ـ حسب فقه الشيعة ـ فى غدير خم حين نصب عليا بن أبى طالب وصيا له من بعده ٠

ولم يلق موضوع قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب الا اهتماما عابرا من المؤرخين القدامى والمحدثين ، حيث اتخذوا منه مجرد مدخل لدراسة الدولة الفاطمية وتطورها وأحوالها ، أو مقدمة للتعريف بنشاط هذه الدولة ـ بعد انتقالها الى مصر ـ فى العالمين الاسلامى والعربى ـ وكان السبب فى هذه الدراسة العابرة هو الغموض الشديد الذى صاحب ميلاد الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، ثم تضارب الآراء التى تناولت أصول هذه الدولة بعد قيامها ، وحقيقة المؤسسين لها ولكيانها ٠ ولذا فان هذه الرسالة تعالج « قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب » باعتبار أن هذه المرحلة الزمنية هى مصدر القوة الحقيقة والطاقة الخلاقة لما قام به الفاطميون من نشاط